أسس الجيـوبـولتيكـا

مستقبل روسيا الجيوبولتيكي

الكسندر دوغين

أسس الجيوبولتيكا

مستقبل روسيا الجيوبولتيكي

تعريب وتقديم

الدكتور عماد حاتم

دار الكتاب الجديد المتحدة

عنوان الكتاب الأصلي

ОСНОВЫ
ГЕОПОЛИТИКИ

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الروسية سنة 1999، موسكو، أركتوغيا تستنتر

حقوق الطبعة العربية محفوظة لدار الكتاب الجديد المتحدة بالتعاقد مع دار نشر آركتوغيا تستنتر في موسكو

© دار الكتاب الجديد المتحدة 2004 إفرنجي

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج ـ طابق 5.
خليوي: 933989 ـ 3 ـ 00961 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 – ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان.
بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb – الموقع على الشبكة www.oeabooks.com

ألكسندر دوغين
أسس الجيوبولتيكا   تعريب: د. عماد حاتم
720ص، 17 × 24 سم
ردمك: (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-218-7
رقم الإيداع المحلي: 2004/5933

ترجم هذا الكتاب إلى اللغات التالية: الجورجية والصربية والرومانية والتركية والعربية وبشكل جزئي: الإيطالية والفرنسية والإنكليزية والإسبانية والفارسية والأفغانية

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو/الصيف 2004 إفرنجي

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

توزيع **دار أويا** للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر،
هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ فاكس: 4442758 . 21 . 00218. – ص.ب: 13498،
طرابلس ـ الجماهيرية العظمى ـ oeabooks@yahoo.com

تقديم

قبل عام واحد من غروب شمس القرن الماضي صدرت عن دار «أركتوغيا ـ تسنتر» في موسكو الطبعة الثالثة من كتاب «أسس الجيوبولتيكا»، «مستقبل روسيا الجيوبولتيكي» لمؤلفه ألكسندر دوغين. ويصف المؤلف عمله بقوله: «الكتاب ـ أول مؤلَّف تعليمي باللغة الروسية في علم الجيوبولتيكا. عرضت فيه بمنهجية وتفصيل أسس الجيوبولتيكا، نظريتها وتاريخها. كما إنه يغطي ميداناً واسعاً من المدارس والرؤى الجيوبولتيكية والقضايا العملية. ولأول مرة تصاغ العقيدة الجيوبولتيكية لروسيا.

إنه الدليل الذي لا بديل عنه بالنسبة لجميع من يتخذون القرارات في الميادين الأعظم أهمية في الحياة السياسية الروسية ـ من السياسيين وأصحاب المشاريع، والاقتصاديين والمصرفيين والدبلوماسيين والمحللين وعلماء السياسة ومن في حكمهم».

والكتاب غني بموضوعاته وبجدّة الآفاق التي يرتادها المؤلف وتخريجاته التي تجمع بين الرؤية المعاصرة والمعطيات التاريخية البعيدة وتأسيس الأطروحات السياسية أحياناً على خليط طريف من الخصائص الإتنية والمعتقدات الدينية والتكوين الروحي للأفراد والشعوب، يضاف إلى هذا طرافة تقسيم الكتاب والعناوين الكثيرة التي تشير إلى الأبواب والفصول والمقالات في كل فصل، كما تنعكس طرافته في النصوص المترجمة التي يختارها المؤلف من الأصول الأوروبية، يضاف إلى ذلك كله عشرات الخرائط الجيوبولتيكية والمسرد الذي يختم الكتاب وقد تضمن عدداً وافياً من المصطلحات المتعلقة بهذا العلم الجديد ـ الجيوبولتيكا. وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن فهم الكتاب لن يكون كاملاً إلا بقراءته

في ترجمة(*) متأنّية جادة، معزّزة بالشروح والهوامش؛ والكتاب يقع في مقدمة وثمانية أبواب نستعرضها في ما يلي:

(*) في السابع والعشرين من أيار من العام قبل الماضي 2002 وفي معهد «بيت الحكمة» في جامعة «آل البيت» بالمملكة الأردنية الهاشمية حيث كان المترجم يعمل أستاذاً في كلية الآداب عقدت «حلقة نقاشية» بعنوان «الجيوبولتيكا في عالم متغير: نموذج روسيا الجديدة» شارك فيها المعهد الدبلوماسي في عمان، وكانت بالنسبة للمترجم مناسبة للتعرف على كتاب «أسس الجيوبولتيكا»، وقد تقدم في الحلقة النقاشية بمداخلته حول الكتاب وتفضلت بنشرها مجلة «قضايا استراتيجية» (دمشق، العدد 11، 2002 ص 200 ـ 207) ثم تلقى المترجم تكليفاً من «دار الكتاب الجديد المتحدة» بنقل الكتاب إلى اللغة العربية تمهيداً لنشره.

وانطلاقاً من القناعة بأن الترجمة هي نقل المعنى من اللغة المنقول عنها إلى اللغة المنقول إليها نقلاً دقيقاً أميناً وبلغة فصيحة وأسلوب سائغ رصين نأمل في أن نكون قد وفقنا إلى نقل «أسس الجيوبولتيكا» إلى اللغة العربية بالدقة العلمية المطلوبة دون أي استثناء للمواقف التي نتحفظ عليها أو نرى فيها رأياً آخر. وحاولنا في سبيل ذلك تذليل الصعوبات التي اعترضت سبيل الترجمة ومنها تطويع بعض مصطلحات العلم الجديد والمصطلحات التي دخلت اللغة الروسية بعد البيريسترويكا، والتعامل مع التركيبة الخاصة للجملة عند المؤلف وولعه باستعارة مفردات من الانجليزية والألمانية ثم إغفاله تقديم بيان بالمختصرات التي استخدمها في كتابه على الرغم من خدمته الجيدة للكتاب بتعزيزه بالخرائط المطلوبة وبالمسرد المفصل بشرح المصطلحات الجيوبولتيكية الواردة فيه. وترجمنا كل مفردة بما رأيناه ملائماً في العربية باستثناء كلمة «المؤَسْلَمين» التي وُصف بها الترك في بعض الأماكن بمعنى . . . «الذين أدخلوا في الإسلام» فترجمناها بالمسلمين.

أما الحواشي والشروح التي وردت في هوامش الكتاب والتي ربما نكون قد أكثرنا منها سواء من حيث العدد أو طول النصوص في بعضها فقد سبّبتها ـ في رأينا ـ طبيعة الكتاب والآفاق المتنوعة التي ارتادها المؤلف والتي يتأسس كثير منها على معلومات لا يعرف القارىء عنها إلا القليل أو قد لا يعرف أي شيء. وإذا استثنينا المتخصصين فإن معلوماتنا عن التاريخ الأوروبي والعلاقات الدولية والتاريخ الحديث لدول كالصين والهند ـ متواضعة إلى حد كبير. أما روسيا فلا يبدو تاريخها فقط مجهولاً بل وجغرافيتها أيضاً. وهذا بمجموعه ما دفعنا إلى تقديم هذه الأعداد من الحواشي ـ الإضاءات التي تنير المصطلح، الشخصية الانسانية، الحادثة التاريخية، الاتجاه الفكري، الظاهرة الطبيعية، المنطقة، الجزيرة، النهر وما إلى ذلك بما نرى أن السياق يحتاج إليه وفي محاولة إلى الاختصار قدر الإمكان إلا في بعض المواضع. واعتمدنا في هذه الحواشي على عدد من المراجع الدقيقة كان في طليعتها «المعجم الموسوعي» الصادر في طبعته الرابعة عن «سوڤيتسكايا اينتسيكلابيديا» في موسكو عام 1987. =

تستقل المقدمة بتعريف هذا العلم الجديد ـ الجيوبولتيكا الذي يفترض ـ بسبب طابعه التركيبي استدعاء عدد كبير من العلوم ليؤكد من خلال ذلك على أنه علم لا يقارن بالعلوم المفردة بل بمنظومات العلوم. وإذا كانت الماركسية وليبيرالية آدم سميت تطرحان مقولة «الاقتصاد مصيراً» فمقولة الجيوبولتيكا هي «التضريس الجغرافي مصيراً» ذلك أن الجغرافيا والمدى المكاني يلعبان فيها الدور الذي تلعبه النقود والعلاقات الإنتاجية في الماركسية والليبيرالية، وإليها ـ إلى الجغرافيا والمكان ـ تنتهي الخطوط المؤسسة للوجود البشري، وبهذا المفهوم تعرض الجيوبولتيكا ثبوتيتها في مسألة تفسير الماضي وفعاليتها اللامتناهية في تنظيم الحاضر وتصميم آفاق المستقبل. ذلك أن العنصر الأساسي في الجيوبولتيكا هو الإنسان المحدَّد بالمدى المكاني، الذي نشأ وتكوّنت اشتراطتيه ضمن خصوصية مميّزة هي التضاريس الجغرافية للمكان وهذا ما تجسده بصفة خاصة التجليات الكبرى للإنسان كالدول والإثنيات والثقافات والحضارات الكبرى وما إلى ذلك. وإذا كان ارتباط الفرد بالاقتصاد أمر بيّن وكانت الاقتصادية مفهومة بالنسبة للبشر الاعتياديين مثلما هي مفهومة بالنسبة لمرجعيات السلطة الأمر الذي جعلها ـ حسبما يرى المؤلف ـ تحقق شعبية واسعة وتؤدي مهمة تعبوية تصل إلى درجة إشعال الثورات المؤسسة على استقطاب الجماهير البشرية، فإن ارتباط الإنسان بالمكان والأطروحة الأولى للجيوبولتيكا، لا يظهر بصفة ملموسة إلا على بعد معين من الإنسان الفرد، ولهذا السبب لم تتحول الجيوبولتيكا بعد إلى ايديولوجيا، أو بكلمة أدق إلى «ايديولوجيا جماهيرية» فمنطلقاتها الأساسية وموضوعاتها وَقْف على المرجعيات العاملة على القضايا ذات المدى الواسع

= ويسرّنا بهذه المناسبة أن نتقدم بصادق الشكر إلى الأستاذ الدكتور سهيل فرح الذي قرأ «أسس الجيوبولتيكا». باللغتين الروسية والعربية، وبكل المسؤولية الخلقية والعلمية، وساهمت ملاحظاته القيّمة في تدقيق عدد من المصطلحات العلمية وفي المطابقة بين الأصل والترجمة. كما نتوجه بالشكر العميق إلى أسرة العاملين في دار الكتاب الجديد المتحدة، ممن بذلوا في طبع وإخراج هذا الكتاب جهوداً صادقة لا يعرف أهميتها وحجمها إلاّ من واكب هذا العمل منذ بدايته وإلى أن رأى النور.

أما موقفنا من الكتاب فقد بسطناه على صفحات هذا «التقديم» الذي حاولنا أن نضمّنه أهم ما اشتمل عليه الكتاب وأهميته بالنسبة للقارىء العربي، بالإضافة إلى رأينا في جملة من المسائل التي تمت الإشارة إليها ومناقشتها بما وسعنا من الدقة والتفصيل.

كالتخطيط الاستراتيجي والسنن الاجتماعية ذات المستوى الكوني وما إلى ذلك.

ولهذا السبب يؤكد المؤلف على أن الجيوبولتيكا ـ هذا العلم الجديد ـ هي وجهة نظر السلطة، هي علم السلطة ـ ومن أجل السلطة. ويكشف تاريخها بطوله على أن من عكفوا على دراستها كانوا دون استثناء ممن شاركوا في حكم الدول والأمم، أو ممن يهيئون أنفسهم للقيام بتلك الأدوار. فهي تمثل في العالم المعاصر «دليل رجل السلطة» وبكلمة أدق هي كتاب السلطة يقدّم ملخصاً ينبغي وضعه في الحساب عند اتخاذ القرارات الكونية المصيرية ـ كعقد التحالفات وشن الحروب، والقيام بالإصلاحات أو الاجراءات الاقتصادية والسياسية على مستوى واسع، ويختم المؤلف تعريفه بهذه الكلمات الثلاث:

ـ «الجيوبولتيكا ـ علم الحكْم».

وقبل أن يشرع المؤلف في شرح هذه الأطروحة الجديدة في كتابه يؤسس لذلك بمناقشة فكرة صميمية مؤداها أن الصراع الانساني أمر طبيعي مركوز في صلب الوجود الكوني. والصراع الذي يسوقه المؤلف مثالاً يختلف عما هو مألوف في هذا المضمار كالصراع الإتني أو الطبقي أو القائم على الرغبة في الاستئثار، ويصوره مكنوناً في التركيبة الأولى للبناء الكوني تعبر عنه ثنائية «التيلوروكراتيا» و «التالاسوكراتيا»، القوتين البرية والبحرية مجسَّدتين في عفوية البر (الثابت الصلب) وعفوية البحر (السائل الجاري) ، واستعراض هذه الثنائية والصراع الكونيين يقرّب المؤلف من الهاجس الأساسي الذي يخترق صفحات الكتاب الطويلة، وهو ضرورة الخروج من دائرة «القطب الواحد» الذي آل إليه العالم بعد انهيار الاتحاد السوڤياتي والبحث عن الطريق التي يمكن أن تؤدي إلى ذلك. فالقوتان اللتان خاضتا الصراع على مدى القرن العشرين هما روسيا، الأوراسيا (القوة البرية) والعالم الغربي الذي يسميه بـ «الأطلسي« (القوة البحرية). وما برحت قدرات هاتين القوتين في تعاظم حتى اتخذت صيغة الرعب النووي الذي فرض عليهما إما نقل المواجهة إلى خارج الأرض (حرب النجوم) وأما أن يفني أحدهما الآخر، وتواصل الصراع على هذه الصورة حتى انتهى لصالح القوة البحرية التي لا تزال تحقق انتصاراتها، ويترادف ذلك بتطلع تلك القوة إلى فرض هيمنتها ورؤاها و«عولمتها» على العالم وإقرار «أحادية القطب» على الصعيد الدولي بينما يرى المؤلف أن هزيمة القوة البرية ليست إلا ظاهرة مؤقتة تعود الأوراسيا بعدها إلى رسالتها القارية التي تتخذ صيغة

جديدة تأخذ في الحسبان جميع العوامل الجيوبولتيكية الجديدة وتحقق انتصارها، وهو ما يحاول المؤلف توكيده من خلال أبواب الكتاب التالية:

يخصص المؤلف البابين الأول والثاني من كتابه لدراسة الجيوبولتيكا من خلال جهود أكبر العلماء المؤسسين لهذا العلم وما جاؤوا به من نظريات، فيتوقف أمام المدرسة العضوية الألمانية التي أسسها ف. راتسيل وقوانينه السبعة التي طبقها على التوسع الترابي للدّول وكانت مترافقة مع بدايات الاستعمار الغربي ثم يتحدث عن ر. تشيلّين وف. ناومن اللذين أكسبا أفكار راتسيل ملامحها التطبيقية وعن دور العالم والسياسي الانجليزي هـ. ماكيندر الذي قرأ خارطة العالم البرية ـ البحرية قراءة جيوبولتيكية دقيقة وأدرك موقع الأوراسيا فيها فسماها «المحور الجغرافي للتاريخ» الكوني، فكان لهذا السبب حريصاً على الحيلولة دون توحد القوى الأوراسية، ويواصل المؤلف دراسة منظّري القوة البحرية الأمريكيين الذين أعانتهم سياسة بلادهم على تطبيق نظرياتهم على الواقع العملي ومن هؤلاء أ. ماهان ون. سبيكمان منظّرَي سياسة الهيمنة الأمريكية على المناطق الساحلية وإغلاق منافذ الأوراسيا على الآماد البحرية، ثم يستعرض نظرية ك. هاوسهوفر المتعلقة بإقامة الحلف القاري «برلين ـ موسكو ـ طوكيو» وكيف حُرف هذا التوجه حتى تحول إلى حرب ضد روسيا أيام هتلر. ويلتفت بعد ذلك إلى أعمال العالم الكبير ك. شميدت ونظريته المتعمقة حول المواجهة بين القوتين البرية والبحرية واللتين استعار لهما اسمي هولتين ورد ذكرهما في «العهد القديم» وهما: بهيموت ولوياثان، ثم يقدم المؤلف بعد ذلك نظرات الأوراسيين الروس ـ ب. سافيتسكي ومريديه حول الأوراسيا وما يسمى «بؤرة التطور» وخصوصية روسيا ومفهوم «الايديوكراتيا» الجديد ويشير إلى «الفرادة العرقية الروسية» التي تمثل تذاوب الغابة بالسهب، انصهار العنصرين السلافي والتركي مؤكداً على طرافة هذا الطرح وجرأته.

وتتوالى في الباب الثاني المخصص للنظريات الجيوبولتيكية المعاصرة أعدادٌ من الأسماء المعاصرة ـ د. ماينئع ، ب. كوين. ك. غرين، هـ. كيسنغر والآراء المرتبطة بها كما يبسط المؤلف نظرية ص. هنتينغتون حول «صدام الحضارات» وف. فوكوياما حول «نهاية التاريخ» وجيوبولتيكا ج. أتّالي ، ويتطرق إلى العولمة، مفهومها وخلفياتها ليتحدث بعد ذلك عن «العولمة ما بعد الكارثية» للبروفيسور سانتورو، وبعد أن يعرض مفهوم «الجيوبولتيكا التطبيقية». الداخلية (مدرسة ايف

لاكوست) فالالكترونية يعلن بأن «الجيوبولتيكا التطبيقية ليست جيوبولتيكا» «لكنه ينظر بكل التعاطف والاحترام إلى جيوبولتيكا اليمينيين الجدد التي اتفقت مع المسار العام لفكر الألمان «القاريين» في فترة ما قبل الحرب، وقد عبرت عنها أطروحة «أوربا ذات الرايات المئة» لألين دي بينوا و«أوروبا من ڤلاديڤوستوك إلى دبلن» لجان تيريار، ونظرية النمساوي ي. فون لوهاوزن المتفقة مع أفكار هاوسوفر، ورؤية كارلو تيراتشانو القائلة بروسيا + الإسلام = إنقاذ أوروبا، وهي تتناغم في مجموعها مع توجه هؤلاء اليمينيين الجدد إلى «وحدة القارة الأوروبية» لتتحول قطباً يمكن أن يقف في وجه القطب الأطلسي الواحد. أما نظرية ل. غوميليوف المتعلقة بالأوراسيا كبؤرة تطور خصبة ملائمة لتشكلات إتنية وثقافية جديدة يتميّز بينها الاتنوس الخاص الذي كونه التذاوب السلافي ـ التركي ونظرته إلى الاندفاعية ورؤيته الطريفة إلى التجدد الإتني وآليته فتدخل بمجموعها جزءاً صميمياً في رؤى «الأوراسيين الجدد» التي ترى في أوروبا قوة قارية محتملة تتكامل مع قوى أخرى، إسلامية وغير اسلامية، لتكوّن الحلف الاستراتيجي القوي الذي يواجه الأطلسية ويفرض ثنائية القطبين أو تعددية الأقطاب.

وهكذا تتنوع النظريات وتتعدد ويأتي من ينتقد سابقه أو يصوبه أو يكمل طريقه، وتستوقفنا طرافة هذه النظريات وحدة بعض المواقف فيها. ومع ذلك، فلا بد وأن تختزن ذاكرة القارىء، نتفاً من فلسفة الجيوبوليتكي الأوروبي الأول ف. راتسيل. ابن القرن التاسع عشر والمتوفى في مطلع القرن العشرين، والذي واكبت حياته المد الاستعماري الأوروبي فرأى أن الدول الكبرى تعيش خلال تطورها إحساساً بالميل إلى التوسع الجغرافي في حدوده القصوى والذي يتدرّج حتى يشمل الكرة الأرضية كلها ما لم يلق من يتصدى له ويوقفه. يضاف إلى ذلك القانون السادس من قوانين ف. راتسيل في التوسع وينص على أن «الباعث على التوسع يأتي من الخارج ، إذ إن الدولة تثار للتوسع على حساب الدولة (أو الأراضي) ذات الحضارة الأدنى» فاتهم بأنه يقدّم «الدليل المرشد للأمبرياليين» الذي ساروا على «قوانينه. . . ولا يزالون». فهل انتبهت الشعوب المستضعفة إلى أن تجعل من «قوانين راتسيل» «الدليل المنبّه للمستضعفين» فتتحالف وتستعد لمواجهة الشر. إذ أن راتسيل، على ما يبدو، كتب قوانينه في القرن التاسع عشر لتطبق في بداية القرن الحادي والعشرين!

وهناك نقطة أخرى تستوقف النظر وهي أن هذا العلم ـ الجيوبولتيكا يكاد يكون وقفاً على الدول العظمى أو ما فوق العظمى إذ «إن الثنائية الجيوبولتيكية المؤسسة لا تمس الثانويين على مستوى الدول إلا بطريقة غير مباشرة، وتأثير هذه الدول على مسيرة المواجهة الكونية غير ذي شأن». ولهذا ينتسب أكبر ممثلي هذا العلم إلى ألمانيا وانجلترا وأمريكا وروسيا وفرنسا (أي الدول الفاعلة على المستوى الكوني). أما من وجدوا في دول كإيطاليا واسبانيا وبلجيكا ورومانيا فلم يكن لهم ذلك التأثير المطلوب. ومن اللافت للنظر ما يشير إليه المؤلف في مقالة «مصائر العلماء مصائر الدول» حيث يفصل بين نوعين من العلماء: من لقوا الأذن الصاغية في بلادهم التي عاملتهم بكل تفهم واحترام، فنهضوا بها وأوصلوها إلى أعلى عتبات الهيمنة والتوسع الكونيين (بريطانيا وأمريكا) وبين من لم يجر الإصغاء إليهم إلا قليلاً كما في فرنسا وألمانيا أو انحدر تعامل بلادهم معهم حتى الحضيض كما في روسيا. ولهذا حققت دول الغرب «السيطرة العالمية» «بينما دفعت ألمانيا سقوطها من التاريخ لمدة نصف قرن ثمناً لإهمالها أطروحات الجيوبولتكيين. أما الاتحاد السوفياتي... فهبط تأثيره العالمي حتى الصفر وتقلصت مساحته بشدة وتحول اقتصاده ووسطه الاجتماعي إلى أطلال».

ويكمل المؤلف تعريف الجيوبولتيكا في خاتمة الباب السادس من كتابه فيصفها بأنها «علم علماني... دَنِسٌ، دنيوي». وفي عبارة تالية يلطف وصفه بالقول «ولهذا يمكننا القول إن الجيوبولتيكا تشغل وضعا بينياً بين العلم التقليدي («الجغرافيا المقدسة») وبين العلم الدنس». فهل يراد من ذلك الوصف استمرار تبرير مسلك الأقوياء الذين ما اعتدّوا خلال مسيرة التاريخ إلا بالقوة. وكان الاستعماريون في كل مرحلة من التاريخ الحديث يخرجون تحت ستار نظرة جديدة. وهكذا، وتحت شعارات «المجال الحيوي» و «تحضير الهمج» و «الرسالة التحضيرية» و «الحماية» و «الانتداب» وسواها أبيدت شعوب. فهل أُدرجت «الجبرية الجيوبولتيكية» في هذه القائمة اليوم واعتمدت ستاراً للنشاط الاستعماري بداية من مطلع القرن الحادي والعشرين؟!

في البابين الثالث والرابع، ويعدّ الأول منهما «تمهيداً» للثاني تطرح تأملات المؤلف حول موضوع وحيد هو روسيا، فيجري التوكيد على الـ **Heartland** الذي

يضاعف، في رأى المؤلف، من فرادة تلك البلاد. أما الخلاص من الوضع القائم فيراه المؤلف في «تجميع الإمبراطورية» الروسية السابقة واستباق ما يخشى حدوثه في المستقبل: كأن تقوم الصين بقفزة يائسة نحو الشمال أو تتحرك أوروبا باتجاه الأراضي الروسية الغربية، أو يتجه المعسكر الإسلامي نحو التكامل مع آسيا الوسطى.

وانطلاقاً من أطروحة «ليس للروس دولة الآن» ينتقل المؤلف إلى مناقشة «مشروعية ما بعد الإمبراطورية» والتي تطبق الآن على البلدان التي ظهرت على أنقاض الاتحاد السوفيتي ويشير بمرارة ممزوجة بالسخرية إلى تطبيق هذه «المشروعية» فيما مضى على المستعمرات والدومينيونات السابقة وبموجبها انتقلت غالبية المستعمرات الانجليزية، الاسبانية، الفرنسية، والهولندية السابقة إلى سيطرة الولايات المتحدة. كما جرى تطبيقها على الدول الأفريقية خلال عملية ما يسمى بـ «تصفية الاستعمار». ويسترسل المؤلف في شرح طبيعة الشعب الروسي، امتداده على خارطة العالم، تكوينه الإتني والتاريخي، أفقه اللاهوتي، لينتهي إلى مناقشة قضية يؤكد على أنها لا تقبل المساومة وهي ضرورة إيجاد «الإمبراطورية الروسية» فالفيدرالية نظام مرفوض في رأيه، وروسيا لم تعرف ما يسمى بـ «الدولة ـ الأمّة» ولا «الدولة الجهويّة» ولا الاتحاد السوفياتي كان دولة من هذه الأنماط، وعلى عدد كبير من الصفحات، وبحظ كبير من التفصيل ينتقد الآلية الحكومية، ـ «القيصرية» منها و «السوفياتية» ويستعرض وجوه الخطأ في كل من النظامين. ومن الأخطاء السابقة يستنبط القواعد الأساسية للامبراطورية الأوراسية الجديدة التي ينبغي أن تقام دفعة واحدة كإمبراطورية، وأن تبدأ من الأساس بريئة من كافة وجوه النقص والضعف التي أودت بكل من النظامين ـ القيصري والسوفياتي. وعلى هذه الأرضيّة يقدم ما يمكن أن يسمى المنطلقات أو البرامج المؤسسة لقيام هذه الإمبراطورية من ذلك أن تقيم التحالفات التي تسمح لها بمد حدودها البحرية حتى أطول مدى، وأن تبتعد عن المادية والإلحاد وتولي الجانب الروحي الأهمية القصوى، وأن تسلك منهج المرونة في تسيير الاقتصاد وتتحاشى الخصخصة والرسملة، وأن تسير في اتجاه أخلاقي انساني ديموقراطي وتعتمد مبدأ الاستقلال الذاتي، الثقافي منه واللغوي والاقتصادي والحقوقي بالنسبة لكل من الإتنيات والأعراف والشعوب الداخلة في الإمبراطورية... والكاتب لا يخفي أمله في أن

تكون الإمبراطورية أوراسية قارية عظمى وفي أن تصير عالمية في المستقبل، وهو ما يفسّر قوله في ختام مقالة: «نحو امبراطورية أوراسية جديدة»: «فمعركة الروس من أجل السيادة على العالم لم تنته بعد».

أما التطبيق «الجيوبولتيكي» الذي يقترحه المؤلف لدعم الإمبراطورية الجديدة فيتمثل في المحاور التي يرسمها لتؤسس مع الإمبراطورية الأوراسية ذلك التكتل الهائل الذي يخوض غمار الصراع مع الأطلسية بنجاح وهي:

1 ـ المحور الغربي، موسكو ـ برلين:

يرى المؤلف في أوروبا الوسطى منطقة شديدة التجانس ويمكنها أن تترك أثراً شديداً على جنوب القارة ـ ايطاليا واسبانيا. أما بريطانيا فلا يراها إلا قاعدة عائمة للولايات المتحدة، ولذلك يحوّلها إلى «كبش فداء» لا مندوحة من التضحية به وإبعاده وتشجيع الحركات الانفصالية لدى القوميات الايرلندية والسكوتلندية والويلزية فوق الجزيرة. وإذا كانت فرنسا أطلسية التوجه دوماً، حسبما يرى المؤلف، فإن نظرته الجديدة إليها تؤسس على قاعدة توجه فرنسي آخر يعود إلى الخط النابوليوني الذي رأى في أوروبا وحدة قارية واحدة وهو ما جسّدته سياسة ديغول الذي تحالف مع ألمانيا سعياً إلى إقامة الكونفيدرالية الأوروبية في مواجهة الولايات المتحدة الامريكية، ثم يذكِّر المؤلف بأعمال المفكرين الاوروبيين السابقين الذين طالما أشاروا إلى الطبيعة الخاصة لوحدة أوروبا. كما يذكّر بحرص الدول الغربية الاستعمارية، عبر التاريخ، على غرس الحواجز الوقائية ـ عبر مجموعة دويلات ـ بين روسيا وألمانيا للحيلولة دون قيام الحلف الروسي الألماني بالإضافة إلى غرس الكراهية المتبادلة بينهما. ويرى أن التكامل بين هذين الشعبين ـ ضرورةٌ تفرضها اللحظة الراهنة والتي تبدو ألمانيا فيها عملاقاً اقتصادياً لكنها قزم سياسي، بينما تبدو روسيا عملاقاً سياسياً لكنّه كسيح اقتصادي ويمكن لكل من الدولتين أن تتكامل مع الأخرى. ويصل المؤلف إلى القول بأن على روسيا أن تكون مستعدة لإعادة منطقة كالييننغراد (بروسيا الشرقية سابقاً) إلى ألمانيا في سبيل تدعيم هذا التكامل وبخاصة أن تلك المنطقة تمثل ـ برأيه ـ رمزاً إقليمياً قد يؤدي إلى حرب يقتتل فيها الأشقاء «الروس والألمان». ويختم المؤلف هذه المقالة بكلمة مأثورة لبسمارك تقول: «لا عدوّ لألمانيا في الشرق». ويتمنّى على الحكام الروس إقرار شعار مقابل يقول: «ليس

لروسيا في الأقاليم الغربية وفي وسط أوروبا إلا الأصدقاء».

2 ـ المحور الثاني، موسكو ـ طوكيو:

يرى المؤلف أن سياسة «الإمبراطورية الأوراسية» نحو الشرق تطرح مجموعة من التأملات التي يبدأها بالحديث عن الهند التي أخذت منذ تحرّرها بالبحث عن «الطريق الثالث» مثلما أظهرت ميلاً إلى الاتحاد السوفياتي وهو ما يشجع المؤلف على عقد التحالف معها. لكن ضعف الهند الاقتصادي وتواضع مستواها التقني يزهّدان المؤلف في هذا التحالف، فلا يسند للهند إلا دور المخفر الأمامي للأوراسيا بينما يشير إلى ما تتفرد به تلك البلاد من ثقافة روحية يمكن أن تساعد على تفسير التوجهات الميتافيزيقية للامبراطورية الأوراسية.

ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الصين، ويفترض لا مندوحة الاختيار بينها وبين اليابان حليفاً للأوراسيا، ليقول بعد ذلك إن التاريخ قد أثبت أن الصين لا اليابان كانت جيوبولتيكياً القاعدة الأهم للأنجلوساكسونية في القارة الأسيوية بينما دأبت اليابان على إقامة العلاقات مع دول المحور الأوروبي . ثم يتحدث بشيء من التفصيل عن أهم القوى الفاعلة على المستوى العالمي وهي ـ الغرب الأقصى (أمريكا انجلترا، فرنسا وبعض الدول الأوروبية) فأوروبا الوسطى فروسيا فإقليم المحيط الهادي ومركزه اليابان، وعن علماء الجيوبولتيكا السابقين وهم يحذّرون دوماً من أنّ أكبر خطر تتعرض له الأطلسية هو قيام تحالف الأقاليم الثلاثة: أوروبا، روسيا والمحيط الهادي. ومن أجل الحيلولة دون ذلك أثيرت النزاعات الروسية ـ الألمانية والروسية ـ اليابانية عبر التاريخ مثلما زرعت الكراهية والأحقاد المتبادلة التي يجب أن تزال الآن لإرساء محور موسكو ـ طوكيو، فهو وحده القادر ـ برأي المؤلف ـ لا على أن يضعف الأطلسية فحسب بل وعلى أن يقضي عليها. ويرى أن الأمور ممهدة لتحقيق ذلك فاليابانيون لن ينسوا الإبادة الذرية التي تعرّضوا لها ولا الاحتلال السياسي لبلادهم. ولن تجد روسيا لنفسها حليفاً أفضل من اليابان ويمكنهما معاً أن يحققا تكاملاً فريداً يتوفر فيه لليابان الاستقلال السياسي والنظام العسكري الاستراتيجي والمواد الطبيعية التي لا تنتهي، كما تتوفر لروسيا التقنية العالية الجودة والإمكانات المالية الضخمة، ويمكنهما معاً تطوير سيبيريا وحل مشاكلها، كما يمكن للعلاقات المنغولية ـ اليابانية القائمة على وحدة الأرومة

والأصل العرقي والروحي أن تلعب دورها في تحقيق هذا التقارب. وحرصاً على ذلك يمكن لروسيا أن تعيد لليابان جزر الكوريل التي تعدّ تذكيراً بالمذابح الحمقاء التي اختلقها الأطلسيون.

3 ـ المحور الثالث، موسكو ـ طهران:

ويرى فيه المؤلف تحالفاً قارياً مهماً يقوم أيضاً على مبدأ وجود العدو الأطلسي المشترك. والعالم الاسلامي يعاني، حسب رأي المؤلف، من التوزّع في عدّة اتجاهات: ـ الاتجاه الأصولي الإيراني ـ التيار العلماني التركي، ـ التيار العروبي، (وتدعو إليه سوريا، العراق، سابقاً ـ السودان ـ وإلى حد ما ـ مصر والسعودية) ـ التيار الأصولي السعودي الوهابي، وأخيراً ـ صور مختلفة للاشتراكية الإسلامية، وكتلك النماذج القريبة من العروبية في مفهومها اليساري. وإذ يسقط المؤلف من حسابه التيارين الثاني والرابع يرى إنه لا يتبقى سوى تيارين هما «الأصولية الإيرانية» و «العروبية في صيغتها اليسارية». وأول ما يناقشه المؤلف هو التيار الأصولي الايراني، ويسارع إلى إعلان المكسب الثمين الذي تحققه الأوراسية من خلال محور موسكو ـ طهران وهو: تأمين خروج روسيا إلى البحار الدافئة، والذي ظلت تسعى إليه خلال قرون طويلة ويحال بينها وبين تحقيقه. ويشرح المؤلف حرص روسيا على بلوغ المياه الدافئة وحرص الأطلسيين على منعها من ذلك سواء عن طريق الشواطىء الجنوبية للقارة عبر المحيط الهندي أو عن طريق البوسفور والدردنيل أو حتى جبل طارق، تلك المناطق التي بقيت ردحاً طويلاً من الزمن تحت السيطرة الأطلسية. أما النقطة الثانية وتتعلق بحل مشاكل آسيا الوسطى، وهو ما لا يمكن أن ينهض به التوجه السعودي حسب رأي المؤلف ـ ولا البانتوركي بسبب توجههما الأطلسي، كما لا يمكن أن ينهض به التيار العروبي لأن شعوب آسيا الوسطى ـ تركيّة اللغة. وبذلك يتبقى التوجه الموالي لإيران والذي يمكنه استبعاد ما قد يحدث من تناقض بين القبول بروسيا وبين القناعة الدينية الاسلامية ويجعل منهما توجهاً جيوبولتيكياً واحداً نحو موسكو ونحو إيران في وقت واحد. وبهذا يمكن للمؤازرة الإيرانية أن تساعد روسيا على حل مشاكلها الجيوبولتيكية مع دول آسيا الوسطى كما يمكنها من أن تقيم ذلك التشكل الإسلامي المتجانس استراتيجياً والمتلوّن من الناحيتين الإتنية والثقافية والمرتبط بالإمبراطورية الأوراسية.

كما أن بمقدور إيران أن تلعب دورها بالنسبة لنقطة أخرى مهمة تتعلق بالمصالح الإتنية الروسية وحقوق الأقليات بالنسبة لكافة أراضي آسيا الوسطى. بينما لا تؤخذ مصالح تركيا في الحسبان سواء في القوقاز أو في آسيا الوسطى، بل وإن المؤلف يلمح إلى مناصرة بعض القوى الانفصالية داخل تركيا وفي الوقت نفسه يعرض على هذه الدولة إمكانية التمدد جنوباً.

أما الخط الثاني للتحالف الأسيوي من الجنوب والذي يسميه المؤلف بالعروبي (البانعربي) فيشمل جزءاً من آسيا الوسطى والشمال الأفريقي، وهو تكتل مهم جداً من أجل السيطرة على الشواطىء الجنوبية الغربية لأوروبا الغربية. فقد بسط الأطلسيون سيطرتهم على الشرق الأدنى والشمال الأفريقي بغية فرض ضغطهم السياسي والاقتصادي على أوروبا. أما تطبيق تكاملية المشروع العروبي مع الإمبراطورية الأوراسية فالمؤلف يسند تنفيذه إلى القوى الأوروبية (وبخاصة ألمانيا) كما يؤكد أفضلية أن يعهد إلى القوى الأوروبية المعنية بمشاريع «أوروأفريقيا» التي تمثل قارة واحدة لا قارتين. كما إن على الإمبراطورية الأوروبية التغلغل جنوباً بالاعتماد على التكتل العروبي وعلى أفريقيا حتى الصحراء لتتوضع استراتيجياً بعد ذلك على سطح القارة بأكملها. أما فيما وراء حدود أفريقيا العربية فيستحسن وضع مشروع مفصل متعدد الاتنيات يعيد ترتيب أفريقيا السوداء وفقاً للمظهر القومي الاتني والثقافي لا وفقاً للمقياس «ما بعد الاستعماري» المتناقض الذي تجسّده الدول الافريقية المعاصرة. وهذا المشروع القومي البانأفريقي (غير العروبي) يمكن أن يكون الإضافة الجيوبولتيكية لخطّة التكامل العروبية.

وإذا كان ما يسميه المؤلف بخصوصية الصيغة الشيعية الآرية للإسلام الإيراني سيحول دون الاستحسان العربي الشامل لأنموذج الأصولية الإيرانية، فهو يقترح أن يتطلع المشروع العروبي إلى إقامة تكتله المستقل المعادي للأطلسية ـ تكون أقطابه الأساسية: العراق - سابقاً - وليبيا وفلسطين المحررّة: (وسوريا أيضاً وفقاً لشروط محددة). ولا يوضح المؤلف لماذا يستثني سوريا بالقوسين ولا طبيعة «الشروط المحدّدة» المطلوبة، لكنه يوضح خصوصية الدول المشاركة بأنها تلك الأقطار العربية التي تعي بصورة أوضح الخطر الأمريكي، والتي ترفض بصورة أكثر جذرية من الآخرين أنموذج السوق الرأسمالية المسمى بالغرب. أما بالنسبة لمصر والجزائر والمغرب فالأمور ستكون مختلفة حسب رأي المؤلف، وذلك لأن القوى

الحاكمة الموالية للأطلسية في تلك الحكومات لا تعبر عن التوجهات القومية لشعوبها ولن تتمكن من ضبط الأمور في بلادها إلى ما لا نهاية. ثم يكرر ضرورة أن يعهد بمهمة تطبيق انضمام المشروع العروبي للامبراطورية الأوراسية إلى برلين أو لأوروبا على العموم. أما الهاجس المباشر لروسيا في العالم الاسلامي فيجب أن تكون إيران دون سواها، وهو ما قد يشير إلى توجه جديد في السياسة الروسية نحو العالم العربي والإسلامي. ويقترح المؤلف لتحقيق ذلك استخدام تأثير روسيا التقليدي على النظم «اليسارية» ذات التوجه العروبي والعراق - سابقاً - وليبيا بالدرجة الأولى، من أجل التقريب بين الدول العربية وإيران وتحقيق النسيان الأسرع للنزاع الإيراني ـ العراقي الذي افتعله الأطلسيون وغذّوه.

وهكذا فإن القسم المخصص لروسيا يتضمن مجموعة معتبرة من الرؤى والأفكار المقترنة أيضاً بالأحلام في الوصول بروسيا إلى المستوى الذي تستطيع فيه إقامة الأحلاف التي أشرنا إليها والارتقاء إلى مستوى القطب الذي يواجه الأطلسية فينتصر عليها. والمؤلف يرى السبيل إلى ذلك في تحقيق النقاط التالية:

الأولى: تجميع الأمبراطورية: وقد يبدو ذلك غريباً بالنسبة لعصرنا الحاضر لكن المؤلف يعود بنا إلى الإمبراطوريات السابقة ليؤكد على أن الوحيدة التي بقيت مستمرة حتى الفترة المتأخرة هي الإمبراطورية السوڤياتية التي قضى عليها الأطلسيون وليس من المستحيل إعادتها. يضاف إلى هذا أن التوجه إلى إقامة التكتلات الكبرى صار السمة الجامعة للقرن العشرين، بل إن المؤلف يختم الفصل الرابع من الباب الرابع بمقالة «امبراطورية الإمبراطوريات الكثيرة» ويكرر فيها الدعوة إلى هذا التضامن الهائل الاتساع والذي يمكن أن يضم الإمبراطوريات الثلاث ـ أوروبا الغربية، المحيط الهادي وآسيا الوسطى، ويترك للهند والعالم العروبي والاتحاد البانافريقي وحتى للصين وسواها من الآماد الكبرى فرصة الانضمام إليه على أساس مبدئي عام يحظر خدمة المصالح الجيوبولتيكية الأطلسية، والخروج من الحلف الاستراتيجي المشترك وإلحاق الأذى بالأمن القاري. ولهذا تفتح الأبواب لقبول من يرغب في الانضمام لهذا التكتل مع احتفاظه بكل مقدمات وجوده الانساني المتميّز ـ العرقي والثقافي والديني وما إلى ذلك.

الثانية: العودة إلى الدين والقومية: وتطبيق التربية الدينية التي تعدّ الأجيال بطريقة مخالفة لما سار عليه الاتحاد السوڤياتي. وتتداخل هذه النقطة لدى المؤلف

مع نقطة أخرى تتعلق بضمور الزيادة السكانية الديموغرافية لدى الروس بالمقارنة مع «شعوب الجنوب العاصفة النمو». وتشف في ثنايا هذه الدعوة أفكار التقليدية السلاڤيانوفيلية الأرثوذكسية والروح «المحافظة» التي يقوم على أساسها الالتزام الخلقي وترسخ القومية وتبنى التقاليد التي تفخر «التالاروكراتية» بالعناية بها ورعايتها. وتستوقفنا كلمات المؤلف، هذا الصوت «الجديد» وهو يهيب بقومه في عبارات متناثرة إذ يقول: «يجب الايحاء لجميع الروس بأن هوية كل شخص بمفرده هي مقدار ثانوي مفتلذ من الهوية القومية. وعلى الروس أن يعوا أنهم قبل كل شيء أرثوذكسيون، وفي المرتبة الثانية روس وليسوا إلا في المرتبة الثالثة بشراً»، «الأسمى من كل شيء ـ الوعي الارثوذوكسي للأمة ككنيسة، ثم الوعي الواضح للاّنفصالية، لكلية وشمولية ووحدة الجهاز الروسي الإتني الحي المكون ليس فقط من الأحياء بل ومن الأجداد ومن الأجيال القادمة، وأخيراً، وفي المرتبة الأخيرة: معاناة الشخصية المحدَّدة كوحدة نووية مستقلة» يجب «إضفاء الروح الكنسية الشاملة على الروس وتحويل كافة المؤسسات الثقافية إلى امتداد للكنيسة الواحدة» «بمثل هذه الطريقة الراديكالية فقط يمكن للروس أن يعودوا بصورة واقعية إلى أحضان الكنيسة المكنونة في أساس وجودهم القومي التاريخي» «إن حقيقة الانتماء إلى الأمة الروسية يجب أن تتم معاناتها على أنها أمر نخبوي، ترف حياتي مستحيل، شمم أنتروبولوجي علْوي، والدعوة إلى هذه الاستثنائية القومية (دون أي مسحة مهما صغرت من رُهاب الأجانب أو من الشوفينية يجب أن تكون محور التربية السياسية للشعب». وقبل أن يتحدث المؤلف عن الجوانب العملية لتشجيع النسل والزيادات المطلوبة للمواليد يقول: «كل أسرة تشارك في المسرحية الدينية القومية عندما تنجب طفلاً روسيا، إذ تشارك في البناء الروحي للشعب كله» «يجب أن يفهم الأطفال على أنهم ثروة قومية مشتركة، تعبير عن الطاقات المكنونة لشعب عظيم. الطفل الروسي يجب أن يفهم في البداية على أنه روسي ثم على أنه طفل».

الثالثة: وتتعلق بالآفاق العسكرية للامبراطورية: فإلى فرادة روسيا من حيث توسطها القاري ومساحاتها اللامتناهية وتاريخها الإمبراطوري العديد القوميات يضيف المؤلف فرادة أخرى هي توفر الأسلحة الاستراتيجية والقدرة على ضرب العدو وهذا ما يعد ـ في رأى المؤلف ـ حماية لأي حلف تشارك فيه روسيا، الأمر

الذي يدفعه إلى دحض كل اقتراحات تحويل الصناعة الحربية الاستراتيجية والاستعاضة عنها بالسلاح «الجهوي» بذريعة عجز أي دولة في العالم عن تطوير أسلحتها في الاتجاهين - الاستراتيجي والتقليدي معاً (وهو ما يفسر عدم أهلية الأمريكيين في حروب النزاعات الجهوية بدءاً من ڤيتنام وانتهاء بالصومال ويوغوسلاڤيا وما عاشته روسيا خلال حربها في أفغانستان). ومن هنا يتضح إصرار المؤلف على أن تبقى بلاده من حيث الأسلحة الاستراتيجية «دولة فوق العظمى» ويرى في ذلك منفعة حتى على الصعيد الاقتصادي «فالسبيل الأسهل للحصول على» كميات أوفر من السلع، الجيدة ليس تحويل الصناعات الحربية إلى صناعة الحلل بل مواصلة وتعزيز صنع حاملات الطائرات والغواصات النووية. وعند توفر الضمانة السياسية في الخصوص يمكن لبضع غواصات نووية أن تحمل لروسيا بلداناً بكاملها ذات صناعة متطورة ومن طريق سلمي صرف بينما يؤدي تحويل الصناعات الحربية إلى صناعة للغسالات بروسيا إلى خسارة اقتصادية تستحيل معالجتها».

الرابعة: وتتعلق بالآفاق الاقتصادية للامبراطورية: ويمهد المؤلف لدراستها بتخصيص فصل لدراسة التقنية والموارد الروسية ووفرة الخامات الطبيعية الروسية التي تباع في السوق العالمية وفقاً لسياسة الإغراق، وعند الانتقال إلى تحديد الخط الاقتصادي الذي ستسير عليه البلاد يصرف المؤلف اهتمامه عن خياري المركزية السوڤياتية والليبيرالية الأطلسية. ويسمي خطه الاقتصادي بـ «الطريق الثالث» القائم على المركزية من حيث الاستراتيجية السياسية وعلى الشراكة في أوسع صورها من الناحية الاقتصادية. وعلى صفحات طويلة يشرح مزايا ذلك الطريق ويسوق في سبيل ذلك نظريات وآراء عدد كبير من العلماء الذين عرفهم تاريخ الاقتصاد الأوروبي والأمريكي وأثبت التاريخ صحتها.

عنوان الفصل الأول من الباب الخامس - «الجيوبولتيكا الداخلية لروسيا مرتبطة بمهمتها الكونية» يعكس نظرة المؤلف بل ونظرة الروس إلى أنفسهم كشعب ذي رسالة وذي مهمة كونية، فـ «في حالة روسيا يستحيل التجرد عن وزنها العالمي» و«هذا الطابع يحدد زاوية النظر نحو قضاياها الجيوبولتيكية الداخلية» «روسيا الحالية ترث في وقت واحد خط العاصمتين السلاڤيتين (كييف وڤلاديمير) وخط محطات قيادة جنكيز خان السهوبية» فإذا ما أضفنا إلى ذلك انفتاح

بطرسبرج على البلطيق وتوسطية موسكو بين المناطق الجغرافية السياسية اقتربنا من فهم الطبيعة الروسية وطبيعة تضاريسها الجغرافية وسياسة المركز والأطراف على أرضها.

يقوم المؤلف بتوصيف المحاور الداخلية للاشعاعات الجيوبولتيكية التي تربط موسكو بأطراف المدى الروسي الشاسع الأبعاد ويبدأ بتحليل «الشمال» فيدخل بالقارىء عالماً «جديداً» غنياً بالأسماء وبالمعلومات المتعلقة بطبيعة التضاريس والسكان وما يكتنف المنطقة من المشاكل. ويتحول المؤلف إلى جغرافي يعرّف بالمناخ والأنهار والثروات الطبيعية ويستعرض تاريخ المنطقة وتطلعاتها الاتنية وما تعانيه من تخلخل سكاني، وينتقل بالقارىء من الأركتيكا الروسية إلى جمهورية ياقوتيا (ساخا) إلى اللينالاند التي لا يخفي جزءه من كون «القوى المعادية ستحاول لدى سنوح الفرصة الأولى، الخروج بكل هذه المنطقة الضعيفة الارتباط بالمركز من تحت السيطرة الأوراسية» وينهي كلامه بالإعلان التالي: «الشمال ـ إنه المستقبل، إنه المصير».

وعندما يتناول المؤلف الشرق يبسط أمام قارئه المساحات الهائلة للبوڤولجييه والأورال وسيبيريا وبريموربيه والألتاي كما يبسط الحضور الإسلامي فيها مرتبطاً بالاتنوس التركي، وظهور النزعة الانفصالية بدرجات متفاوتة القوة بين البشكير والتتار، إلا أنها تستوقف المؤلف الذي يفرد صفحات لموضوع الحيلولة دون «الانفصالية التركية ـ الاسلامية» فيتحدث عن دور نوعين من التكامل ـ العرضاني (وفق خطوط العرض) والطولاني (وفق خطوط الطول) ودور كل منهما في الوصول إلى التلاحم أو التخلخل السكانيين. أما إغراءات منطقة اللينالاند التي تجعلها مطمعاً للأطلسيين فتجعل المؤلف ينصح بعدم الركون إلى الإجراءات العسكرية وحدها، بل يقدم مجموعة من المقترحات الأخرى مشيراً إلى أن من غير المستبعد أن يطرح نفسه السؤال حول نقل عاصمة الأوراسيا بكاملها إلى هذه المناطق «العاصمة التي لم تكن ولم تظهر بعد، عاصمة الألف عام الجديدة».

وبهذا التفصيل والحماسة يتحدث المؤلف عن الجنوب لا في حجمه الروسي بل الأوراسي الواسع، وبهذا يمتد من البلقان حتى منغوريا. وفي الحديث عنه تتداخل أمام أعيننا أعداد من المشاكل كمسألة أوكرانيا والبحر الأسود وقزوين

فـ «الخارج القريب» في آسيا الوسطى وينتقل منه إلى مجالات أبعد نحو الشرق فـ «العودة الجيوبولتيكية لروسيا إلى أفغانستان أمر لا مفر منه ، وقد حددته الجغرافيا نفسها مسبقاً» وهكذا تتجه الخطوط إلى باداخشان فالصين فما هو أبعد من ذلك. واللاّفت للنظر أن المؤلف يصرّ في حديثه عن باداخشان على «الصيغة الأكثر هندأوروبية في الإسلام» وعلى أن هذه الدولة «تشكل في المنظور الإتني هنوداً اعتنقوا الاسلام» وهذا ما يعيدنا إلى نظرته نحو ما يسميه بـ «الاسلام في صيغته الايرانية» وكل ذلك محكوم ـ في تصورنا ـ بنقطتين: ـ أولاهما هذه النظرة الضيقة إلى آرية الايرانيين ومسلمي تلك المناطق الذين نجلّ تفكيرهم الديني عن الانسياق خلف دعاوى العنصرية والعرقية التي يؤكد عليها المؤلف والتي أبطلها الاسلام وحاربها في مجموع حربه ضد كل صور التمايز بين البشر إلا على أساس العمل الصالح، والثانية أن نظرة المؤلف مشوبة في حد ذاتها بنظرته إلى تاريخ المسيحية وما حدث بين كنيستيها ـ الشرقية والغربية من قطيعة لم يصل المسلمون إلى مثلها ولا نحسب أنهم يصلون.

وإذا كان المؤلف قد تحدث عن الجانب الشرقي تحت عنوان «تحدي الشرق» فقد اتخذ حديثه عن الغرب عنوان «تهديد الغرب»، ويفتتحه المؤلف بفصل «غرْبان» أحدهما أوروبا والآخر الغرب الأطلسي. وإذا كانت السياسة التي ينبغي تطبيقها على الغرب الثاني تقوم على «بث الفوضى الجيوبولتيكية في الواقع الأمريكي عن طريق التشجيع، وبكل فعالية، لجميع حركات المخالفة في الرأي ـ الفئات المتطرفة، العنصرية، الطائفية التي تزعزع الاستقرار في العمليات السياسية الداخلية في الولايات المتحدة» فأوروبا، على العكس من ذلك، يجب أن تشجع على إقامة وحدتها وأن يجري العمل على إقامة تحالف باريس ـ برلين. فالمهمة الأهم ـ في رأي المؤلف ـ هي تخليص أوروبا من نفوذ الولايات المتحدة ومن تعزيز علاقات التكامل معها.

وتحتل دول ما يسميه المؤلف «بالنطاق الصحي» مساحة معتبرة من الحديث عن الغرب وقد تمت صياغة هذا «النطاق» من طرف «شعوب ودول صغيرة حاقدة ولا مسؤولة تاريخياً، ذات مطالب متهوسة وارتباط عبودي بالغرب التالاسوكراتي» (ص 388) ويسمي المؤلف مجموعة شعوب الدول البينية التي عملت خلال التاريخ على تدمير التشكلات القارية الإمبراطورية الكبرى كالإمبراطورية الروسية والنمساوية

ـ المجرية. والاتحاد السوڤياتي؛ وهي تثير لدى المؤلف تأملات مستفيضة تتسم بالاندفاع والسخط بسبب ما تلحقه من أضرار بجاراتها الدول الكبرى، ثم يشرح دور الأطلسية في تشجيع وتقوية هذه الدول البينية وهو ما سنعود إليه بعد قليل.

والأهمية التي يكتسبها الباب السادس من كتاب أ.دوغين تتمثل في كونه أقرب إلى «التطبيق العملي» الحي على ما كان المؤلف قد قدّمه في دراسته هذه تحت عنوان «التحليل الأوراسي». والباب طويل وسنكتفي بالتوقف عند بعض فصوله: فالأول من هذه الفصول يحمل عنواناً غريباً «جيوبولتيكا الأرثوذكسية» ولكن يسوّغه منطق الجيوبولتيكا التي تتضافر فيها كافة العوامل التي تكوّن الوجود الانساني. ومن خلال هذا الفصل تنفتح أمام أعيننا طبيعة أحد المذهبين الأكبر من المسيحية ـ المنشأ والتاريخ وأهم المراحل التاريخية. ويعرض ذلك في ضوء عدد من الحقائق التاريخية التي عشناها في علاقاتنا مع الدولة البيزنطية أو مع روسيا أيام الدولة العربية أو عندما كنا جزءاً من الدولة العثمانية، بالإضافة إلى الانعكاسات العقائدية فالسياسية التي تلت القطيعة مع روما، والأحداث التالية لسقوط القسطنطينية وإعلان موسكو نفسها «روما الثالثة» وصولاً إلى حركات تحرر الشعوب الأرثوذكسية وانفصالها عن الدولة العثمانية. وبهذا، ومن خلال ما يكاد يتحول إلى دراسة في المذاهب الدينية، يظهر تاريخ دول أوروبا الشرقية ـ بلغاريا ورومانيا ومولداڤيا واليونان ودول يوغوسلاڤيا السابقة وبولندا في منظور جديد يقنعنا بالدور الكبير للدين كعامل تاريخي فاعل كما تتوالى الصفحات الجديدة من تاريخ هذه الدول الحديث مضافاً إلى الأسس التي تبني عليها أحلامها «الكبرى» كما في الحديث عن «بلغاريا الكبرى» و «رومانيا الكبرى» و «صربيا الكبرى» قبل أن يعصف المد الاستعماري الحديث بكل هذه الأحلام.

ويعدّ الفصل الثالث «المشاكل الجيوبولتيكية في الخارج القريب» أحد أهم الفصول في هذا الباب، ويتضمن الحديث «الثاني» للمؤلف الذي يناقش وبنفس الحرارة والسخط اللذين لمسناهما في الباب السابق، دراسة ما يسمى بدول «النطاق الصحي»، فيحلل طبيعة هذه الدول وتموضعها في العادة بين «تشكلين جيوبولتيكيين كبيرين يمكن لاتحادهما في مدى كبير أن يشكل منافسة خطيرة على الدولة المعنية» أما موقف المؤلف من «استقلال» هذه الدول فيذكر إلى حد بعيد بنظرات فرانس فانون في «معذبو الأرض». يقول أ. دوغين : «لا يمكن الحديث

عن أي نوع من الاستقلال الحقيقي أو الحرية. . . هذا على الرغم من أن «القومية الضيقة» القصيرة النظر قادرة على مستوى ضيق تفكيرها أن تساوي بين هذه التبعية الاستعمارية «للدولة الثالثة»، وبين انتصارات «النضال الوطني التحرري». ثم يقول وكأنه يستبق الزمن منذ نهاية القرن الماضي ويرى إلى هذه الدول وهي تتسابق للانضمام إلى الناتو: «إن دول الخارج القريب» الغربية الطامحة حقاً إلى الاستقلال (وليس «المقضي عليها بالتحرر» بسبب من سياسة موسكو الخيانية) ستختار وفق أقرب الاحتمالات، وبطريقة واعية دور «النطاق الصحي» لخدمة الولايات المتحدة الامريكية» في حين يجب أن يعي مسؤولو هذه البلدان «أن قبول الأنموذج العولمي يعني ما لا يزيد ولا ينقص عن التدمير الكامل والنهائي لذاتيتهم، لهويتهم، للوجه التاريخي لدولهم وأممهم، ونهاية تاريخهم القومي».

ومهما كان موقفنا من هذه الدول فإننا لا نستطيع إلا التسليم بأنها موجودة في الأصل على أراضيها وأن تطلعاتها الوطنية ومذاهبها الدينية قد تكونت ضمن شروط وأسباب معيّنة قد يكون فيها ما يبرر سياسة هذه الدول. لكن الثابت أن غرس هذه الدول علامة من علامات السياسة الانجليزية ثم الأمريكية خلال قرون؛ وقد أثبتت الأحداث مقدار ما يمكن أن تعود به من نفع على المستعمر وما تسببه من أذى لجيرانها، ولهذا فإذا لم توجد هذه الدول بصورة طبيعية يغدو إيجادها أمراً ضرورياً، وهذا ما يستدعي إلى الخاطر صورة الدولة الصهيونية التي زرعتها بريطانيا في أرضنا ثم تعهدتها الولايات المتحدة الامريكية بأسباب البقاء مضافة إلى أفتك الأسلحة.

وفي المقالة الختامية للفصل الثالث من الباب السادس وعنوانها «قطبان على أقل تقدير. . . أو الموت» يشير المؤلف إلى حدة الوضع المعاصر، فإما القبول بالنظام الكوني العالمي الجديد بقيادة الولايات المتحدة وإما التكوين الفوري للتكتل الجيوبولتيكي المناوىء للأطلسية، بل إنه لم يعد مهماً ـ في رأي المؤلف ـ بأي صيغة وتحت أي شعار يظهر ذلك التكتل الجديد. المهم أن يظهر، وأن يكون مضاداً للعولمة، ذلك أن المهمة الأساسية للولايات المتحدة الآن، هي الحيلولة دون قيام الخيار الجيوبولتيكي (مهما كان نوع هذا الخيار) المعارض للعولمة. وقد وصل الأمر إلى درجة لا تسمح بالاختيار بين الجيد والأجود، فإذا استطاعت روسيا أن تنهض بتلك المهمة كان خيراً فإذا لم تفلح في ذلك فلتقم بتنفيذها كتلة

أوروبا الوسطى تحت الراية الألمانية أو كتلة آسيا الوسطى تحت راية الثورة الإسلامية، أو فليتصدَّ لإنجاز المهمة العالم العربي أو أمريكا اللاتينية على الرغم من أن هذين العالمين غير مزودين، من الناحية العسكرية، بما يؤهلهما لمواجهة دولة فوق العظمى.

ولعل أهم فصل «تطبيقي» في الكتاب هو «الفصل الخامس من الباب السادس «جيوبولتيكا النزاع اليوغوسلافي» فقد بقيت يوغوسلاڤيا بحاضرها وماضيها «مجهولة» بالنسبة للكثيرين إلى أن نشبت فيها تلك الحرب بين الأشقاء واتخذت الصورة التي يمكن أن تقتنع بضراوتها من خلال أنموذج المذبحة الصربية ـ الكرواتية . وقد عرض المؤلف هذه الحرب بصورتيها الداخلية منها والقائمة على التدخل الخارجي، وذلك من خلال الأنساغ التي تجري في عروق الإخوة المتنازعين وتعبّر عنها العناوين المثيرة الموحية ـ فلا طريقة لفهم هذه الحرب ما لم نفهم «حقيقة الكروات» «حقيقة الصرب» «حقيقة المسلمين اليوغوسلاف» «حقيقة المكدونيين» وحقيقة التوجهات الدينية الصميمية المسيطرة على الساحة اليوغوسلافية وحقيقة التوازنات القارية بين الأطراف والأيدي الأجنبية التي أرّثت تلك الحرب لتجني ثمارها. وهكذا تبدو يوغوسلاڤيا في أتون هذه الحرب الفريدة الخلاصةَ الفاجعة لتاريخ أوروبا الطويل الذي خلخلته الصراعات والتدخلات الخارجية، وثمرةَ نزاعات دامت قروناً وتجلت نتائجها في الحربين العالميتين الأولى والثانية قبل أن تتوجها الحربُ الأخيرة في ثمانينيات القرن الماضي. أما أبرز نتيجة يستخلصها المؤلف فتعبر عنها المقالة الأخيرة من الفصل الخامس بعنوان «صربيا هي روسيا» لأن سيناريو حرب قارية كبرى يمكن أن يندلع في روسيا، يدور فوق أنموذج بلد بلقاني صغير، ولجميع القوى الجيوبولتيكية المشاركة في نزاع البلقان نظائرها في روسيا ولكن في أحجام مدوية أكبر إلى درجة لا يمكن مقارنتها. فالكروات والسلوڤينيون الذين يطمحون إلى الدخول في أوروبا لهم نظائرهم الجيوبولتيكيون من الاوكرانيين. . . والنزاع الصربي مع المسلمين شبيه بالمواجهة الروسية الاسلامية الممثلة في آسيا الوسطى وفي القوقاز». ويختم الفصل بمحاولة الإجابة عن سؤال كيف نحول دون وقوع «يوغوسلاڤيا مهولة في روسيا، مريعة بأبعاد مذبحتها الدامية ونتائجها؟».

وقبل أن يغلق المؤلف الصفحة الأخيرة من الفصل السادس يتطرق لعدد من

التصورات حول «الجغرافيا المقدسة» وهو ما سبقت الإشارة إليه ثم يناقش برؤية جديدة بعض المفاهيم التي شاع استخدامها بصفة خاصة قبل انهيار الاتحاد السوڤياتي مثل «وَهْم الشمال الغني»، الذي ليس غنياً بالمعنى المادي إلا في بعض أجزائه، في مواجهة الجنوب الغني بكثير من قناعاته. وفصل «مفارقة العالم الثالث» و«دور العالم الثاني».

يتضمن الباب السابع أربعة من النصوص المؤسسة لعلم الجيوبولتيكا، وهي ترد برؤى وأحجام مختلفة لكنها تغطي موضوعات مهمة في الرؤيتين التاريخية والجغرافية للعالم، وتقدم مادة معرفية متميّزة. ويلفت هـ. ماكيندر نظرنا في مقالته «المحور الجغرافي للتاريخ» بشمولية رؤيته وبتفسيره للتاريخ الاوروبي الطويل من خلال مجموعة من الملاحظات المكثفة الدالّة التي لخّصت قروناً من الحملات المغولية التركية على أوروبا وعلاقات الغزو والتصدي ثم تحقيق الكشوفات الجغرافية في البحار وانعكاس ذلك على مسيرة التاريخ وتلك الملاحظات الهامة التي قدمها بالنسبة لروسيا مع مقارنات ناجحة لما يجري في العصر الحديث ولما يمكن أن يكون عليه المستقبل.

ومع تسجيل احترامنا لآراء هذا العالم والسياسي المميّز نسجل أيضاً موقفنا من هذا الارتباك الذي يتلبس العلماء الاوروبيين عندما يتناولون التاريخ العربي والاسلامي. فـ هـ. ماكيندر يقدم للحروب الصليبية تفسيراً يتجاوز الموضوعية والمقبولية لا لشيء إلا لأن هذه الحرب انتهت ـ عبر فواجع كثيرة ـ بانتصار العرب على الأوروبيين. فالترك السلاجقة ـ برأيه ـ «قضوا على سيطرة السراسين في بغداد ودمشق وظهرت ضرورة إنزال العقوبة بهم على مسلكهم نحو الحجاج المتجهين إلى القدس، هو ذا السبب الذي جعل العالم المسيحي يشهد سلسلة كاملة من الحملات العسكرية المعروفة باسم الصليب المشترك. وعلى الرغم من إنه لم يتسنّ للأوروبيين تحقيق المهمات المطروحة فإن تلك الأحداث قد هزت أوروبا ووحدَتَها». والمؤلف، كما نرى، لا يذكر العرب في سياق هذه الحرب وكأن أرضهم الواسعة قد خلت من سكانها بدخول الغزاة وجنودهم ـ فحوّلها هـ. ماكيندر إلى حرب بين الأتراك والأوروبيين بينما كانت بكل ما فيها ـ بمجرياتها، بالدماء التي سفكت فيها، بمفاهيم الفروسية التي غطتها، بلغتها وبتوجهاتها الدينية حرباً عربية ـ أوروبية شاركت فيها عناصر تركية مسلمة كان لها وجودها لكنها لم

تلعب الدور الذي يحوِّل الحرب، ولو في جزيئة منها، إلى حرب تركية ـ أوروبية. وبالإضافة إلى ذلك يصر المؤلف على إلغاء دور العرب وإذا ما اضطر إلى ذلك سماهم بالسراسين. وفي معرض استعراضه للفرق بين السيطرة «السراسينية» والتركية على الشرق يشير بإعجاب شديد إلى إنجازاتهم: «كان السراسين فرعاً من العرق السامي، أقواماً استوطنوا حوضي النيل والفرات والواحات الصغيرة في جنوب آسيا، وباستخدامهم للإمكانيتين اللتين قدمتهما لهم هذه الأرض ـ الخيل والجمال من جهة والسفن من الجهة الأخرى . أقاموا امبراطورية عظمى. وفي مراحل تاريخية مختلفة كان أسطولهم يسيطر على البحر الأبيض المتوسط حتى اسبانيا وعلى المحيط الهندي حتى جزر الملايو».

وتكاد مقالة «الأسس الجغرافية والجيوبولتيكية للأوراسيا» لـ ب. ساڤيتسكي أن تكون استمراراً لمقالة هـ. ماكنيدر فقد اختص روسيا بنصيب معتبر من مقالته المتعمقة المتعلقة بمركزية روسيا في الأوراسيا ودورها التوحيدي بالنسبة لثقافات الشعوب المختلفة وهو ما أظهره تاريخها الطويل الذي يعد بحاضر يمكنه أن يعيد تلك العلاقات السابقة وذلك بأن تستعين روسيا بـ «روابط القربى الاتنوغرافية . . . والتي يرتبط بها عدد من الشعوب الأوراسية مع الأمم الأوراسية. روابط الروس الهند اوروبية، روابط الترك الأسيويين مع آسيا الصغرى وإيران، نقاط التواصل القائمة بين المنغول والأوراسية وكلها يمكن أن تحمل الفائدة لصالح بناء ثقافة عضوية جديدة للعالم الذي، وإن كان قديماً، لكنه لا يزال فتياً يعد بمستقبل عظيم».

أما دراسة جان تيريار «الشيوعية فوق الانسانية» فلعلها الصورة الأفضل للرؤية الجيوبولتيكية للمستقبل الاوروبي، وأول ما يلاحظ فيها هذه الدعوة إلى تكوين الإمبراطورية العظمى «من فلاديڤوستوك إلى دبلن» والدعوة إليها دعوة إلى القوة «فالحياة لا ترحم الضعفاء» و«لا أمة بلا جيش، ولا جيش بلا سلاح ذري . . . وليس ثمة اليوم أي وزن دولي لأمة يقل عدد سكانها عن 200 ـ 300 مليون نسمة»، كما كان تيريار أجرأ من قال بعزل انجلترا عن أوروبا فـ «في حرب 1940 لم تكن فرنسا القارية عدو ألمانيا الذي لا يرحم بل انجلترا البحرية. انجلترا بالذات وعلى مدى خمسة قرون هي العدو الأساسي والرئيس لأوروبا» وهذا ما سيشرح ك.شميت أسبابه في مقالته التي تختم النصوص الأربعة وهي بعنوان

«التوتر الكوني بين الشرق والغرب والمواجهة بين الأرض والبحر».

وفي هذه المقالة يشرح شميدت الصراع بين اليابسة والبحر على أنه جزء من الطبيعة الكونية نفسها، لكن أعظم ما يقدمه في دراسته هو الملابسات والأسباب التي أدت بالجزيرة البريطانية إلى الانفصال عن القارة الأوروبية ثم بدأت بعد ذلك بتحقيق وجودها البحري المجرد، والنتائج التي ترتبت على ذلك وبخاصة بالنسبة للثورة التقنية، وهو بالتالي يشرح قضية مهمة يرد بها على التفرّد الانجليزي المزعوم في حقل الصناعة والإبداع اللذين كانا خلال التاريخ الطويل قسماً بين جميع الشعوب غير أن أسباباً معينة هيأت لبريطانيا فرصة الاستئثار بهذه الظروف.

يميّز المؤلف الباب الثامن الأخير من كتابه بعنوان «بديلاً عن الخاتمة» ويخوض فيه جدلاً مع ك. شميدت وينهي الكتاب بمسرد يقدم فيه تعريفاً بكل من المصطلحات الجيوبولتيكية الكثيرة التي وردت في تضاعيف الكتاب.

وبعد استستلام انجلترا لنداء البحر وتحولها إلى قوة بحرية نقطةً فاصلة في التاريخ الإنساني الحديث الذي اتخذ، على أثر ذلك، مقاييسه ومعاييره الحديثة بالنسبة للنشاطات السلمية والحربية. ولهذا نرى أن من الظلم دراسة الحرب البونية بين قرطاج وروما وهزيمة الأولى وفقاً لمعايير الجيوبولتيكا المعاصرة، وربما كان من الأكثر عدلاً دراستها وفقاً لنظرية صاحب «المقدمة»، ابن خلدون ورؤيته المميزة للتاريخ ومقولة «العصبية»، وتوفر القوة بمقدار توفر الهمجية أو الحضارة وذهابها بمقدار ما يذهب من التوحش ويكتسب من الحضارة، وهذا ما يفسر سقوط طروادة أمام أخيل وسقوط قرطاج المتحضرة أمام روما الفتية ثم سقوط روما نفسها أمام البرابرة. ومن المؤسف أن بعض الأدبيات الأوروبية لا تزال تكرر بتشفٍّ مملّ دعوتها إلى دمار قرطاج، الدعوة التي تكررت مرات في هذا الكتاب، ومنطوق هذه الدعوة مقطوع عن سياقه الذي يقرّب روما لا قرطاج من القوة الغاشمة المدمرة. وهو يعود إلى مجريات الحرب بين المدينتين، و إلى معاهدة زاما التي كبلت قرطاج بالأصفاد، وعندما شكت قرطاج لروما غارات خصمها ماسينيسا المتكررة، أوفدت روما سفارة برئاسة كاتون؛ ولم تنته السفارة إلى شيء سوى سلة من أكواز التين القرطاجي حملها السفير معه لينثرها أمام أعضاء مجلس الشيوخ صائحاً: «ثلاثة أيام فقط تفصلنا عن الأرض التي تنتج هذا التين!» وأتبعها بعبارته المشهورة «يجب أن تدمر قرطاج» التي صارت من بعده تعبيراً عن السبب

الحقيقي لهذه الحرب ولحروب كثيرة فرضها الجشع والسطوة.

وقد كانت روما أول من اعتذر لقرطاج عندما أقامت لهانيبال تمثالاً من المرمر أهدته «إلى أكبر رجل حرب بين قدماء الرجال» (اقرأ Jean Bablyon Emperatrice Emperatrices Syriennes، الطبعة العربية، دمشق دار العلم 1987 ص 62) واعتذرت إليها منظمة اليونيسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة عندما أصدرت عدداً خاصاً من «رسالة اليونيسكو» (يناير 1971) تحت شعار «لا تدمروا قرطاجة» وتحدثت عن تاريخ المدينة وأهميتها وخصائصها الفنية التي عجزت طبقات الركام والملح والحقد التي غطيت بها المدينة عن حجبها أو النيل منها.

لم يَبْقَ إلا أن يقتنع المتعصبون بأن يتركوا قرطاج لسباتها الأبدي الجليل. وليتذكروا أياديها النبيلة في سفر الرفد الحضاري للمناطق الواسعة التي سيطرت قرطاج عليها وأعانتها على النهوض. فإذا أعماهم التعصب عن ذلك فليتذكروا درس تضحياتها الأخير ومعنى أن يكون الوطن هو الحياة.

* * *

وبالإضافة إلى ما يتضمنه كتاب أ. دوغين من قضايا ومسائل وآفاق واسعة فإنه يشتمل على مسألة أخذت حقها من الترجمة لكننا لا نستطيع إلا أن نوفيها حقها من المناقشة قبل أن نبيّن موقفنا منها. وهذه المسائل هي:

وقد وردت في الصفحات 473 ـ 479 و560 ـ 565 من الكتاب الأصل فكانت مفاجأة تبعث على الدهشة وتثير الظن بل والترجيح بأن تكون هذه الصفحات محمولة، بكيفية ما، على الكتاب لأنها تتعارض في توجهها وفي أسلوبها ومنطقها العام مع السياق العام لكتاب «أسس الجيوبولتيكا» برمته، ومع القيم الانسانية، الخلقية والدينية التي دعا المؤلف بحماسة إلى الأخذ بها والسير على هديها، مثلما تتعارض مع الطبيعة الروحية الروسية ومع «الأرثوذكسية» الروسية والرسالة الروسية التي أكد المؤلف عليها جميعاً بكل اعتزاز، بل ومع «الطبيعة الإمبراطورية» للشعب الروسي الذي تعايش قروناً مع عشرات الشعوب والأعراق والإتنيات واللغات التي ربما قاربت المئة عدداً دون أن تظهر في تاريخه، وحتى في أشد مراحله قتامة وإظلاماً، أية بوادر للعنصرية أو الفوقية العرقية إلى درجة أن ظهرت نظريات تحاول تفسير هذا «التطرف» في اللاعنصرية لدى الروس. وخير شاهد على ذلك الأدب

الروسي الذي كان بتوجهاته الديموقراطية والانسانية وقضاياه الخلقية مرآة للروح النبيلة للشعب الروسي.

تتناول المجموعة الأولى من الصفحات رؤية المؤلف للشمال والجنوب ويعتمد الكاتب فيها أسلوباً تقريرياً يفرض قبول ما يقال على أنه مسلمات لا تحتاج إلى أي شرح أو برهان فمن ذلك قوله: «وآخر بقايا هذه الثقافة البريموردياية قد اختفت من الواقع الفيزيائي منذ بضع آلاف من السنين، وعلى هذا فإن الشمال في التقليد ـ واقعٌ ما وراء التاريخ وما وراء الجغرافيا، والشيء نفسه يمكن قوله حول العرق الهيبيربوري ـ فهو «عرق لا بالمعنى البيولوجي بل بالمعنى الروحي الصرف». وإذا سلمنا بهذه المنطلقات لا بمعناها البيولوجي بل بالمعنى الروحي سَهُل علينا قبول «إن الطبقة البدئية الأقدم للتقليد تعرض أولوية الشمال على الجنوب، فرمزية الشمال ذات علاقة بالنبع، بالجنة النوردية الأولى، والتي منها تستمد الحضارة الانسانية كلها بدايتها» «أما الفكرة المرتبطة تقليدياً بالشمال فهي فكرة المركز، القطب الراسخ، نقطة الأبدية والتي لا يدور حولها المدى فقط بل والزمن، الدورة. الشمال هو الأرض التي لا تغيب فيها الشمس حتى في الليل، مدى النور، النور الأبدي». ولكن ألا يقول لنا منطق دورة الطبيعة وحركة الشمس والأرض، وبنصيب مماثل من الرجحان بأن الشمال، في الوقت نفسه، هو الأرض التي لا تشرق فيها الشمس حتى في النهار، مدى الظلمة، الظلمة الأبدية. وعلام يجب أن نعتمد عندما يطلب منا التسليم بهذا الموقف الذي ينسحب على قسم كبير من أبناء كوكبنا الأرضي المشترك، والمتعلق بارتباط «الشمال بالروح، بالنور بالطهر، بالكمال، بالوحدة، بالأبدية، أما الجنوب فيرمز إلى شيء مختلف كل الاختلاف، إنه المادية، الظلمة، الاختلاط، الحرمان، الكثرة، الغوص في تيار الزمن والتحول». والقبول بهذه «الحقائق» سيوصلنا على ما يبدو إلى ما يراد من تسويد أحد القطبين على الآخر: فـ «إزاء اعتراف الجنوب بأولوية الشمال تقوم بين هاتين الجهتين من جهات العالم علاقات متناغمة، الشمال يلهم الجنوب .... فإذا رفض الجنوب الاعتراف بدأ التنازع المقدس «حرب القارات».

ومع أن تحولات كثيرة حدثت منذ العهود السحيقة فقد «تغلغلت شعوب في الأراضي الجنوبية فأقامت الحضارة النوردية الواضحة التعبير... و .... تغلغل الجنوبيون أحياناً بكاملها مسافات بعيدة إلى الشمال حاملين معهم طرازهم الثقافي»

و «أعراف الجنوب المعاصرة تمثل خلاصة الاختلاطات الكثيرة العدد من عروق الشمال، ولون البشرة كفً منذ زمن بعيد عن أن يكون المظهر المميّز للانتماء إلى هذا العرق الميتافيزيقي أو ذاك» دون سواه، أما إنسان الجنوب فهو «النقيض المباشر للخط النوردي... ينزل في الكوسموس الذي يجلّه ولكن لا يفهمه... ينحني أمام الخارجي ولكن لا الداخلي... عاجز عن الانتقال من الرامز إلى المرموز... إنسان يعيش بالشهوات والاندفاعات ... يضع الروحي أعلى من الروحاني (الذي بكل بساطة لا يفهمه».

وإذا كان من المسلمات المطروحة أن الحضارات النوردية غابت في غياهب العهود السحيقة من الزمن فإنها خلفت «عرق» المعلمين «النورديين» الذي كان يقف عند منابع الديانات والثقافات لشعوب جميع القارات وجميع ألوان البشر فيمكن العثور على آثار العبادة الهيبيربورية عند هنود أمريكا الشمالية والسلافيين القدماء وعند مؤسسي الحضارة الصينية عند السكان الأوائل في المحيط الهادي ولدى الجرمان الشقر الشعور ولدى الشامانات السود في أفريقيا الغربية ولدى الأزديك والمنغول البارزي الوجنات، فليس ثمّة شعب على وجه الأرض لا يملك أسطورة عن «الإنسان الشمسي Sonnenmensch». ومع أن العبارة أسقطت الشعوب السامية من جرد الشعوب التي تأثرت بالنورديين فإنها صادرت الاستقلالية والتفرد الذاتي للجميع دون أن تحدد طقساً معيناً من آثار العبادة الهيبيربورية، فإذا افترضنا أنها عبادة الشمس التي جرى ذكرها قبيل هذه العبارة وفي خاتمتها فإن عبادة الشمس هذه عُرفت حقاً عند معظم الشعوب لكنها ارتبطت بالتفكير الانساني في خلق الكون والاهتداء إلى معرفة من أوجده، لهذا كانت هذه العبادة أقرب إلى الإرادة الذاتية الفطرية من كونها مرتبطة بنقطة معينة لابدّ وأن تكون الشمال. وهذا ما يفسّر نسب الفراعنة أنفسهم إلى رَعْ، الراعي، الشمس «راعية النهار، وقصائد أخناتون وأناشيده المؤثرة إلى معبوده الشمسي وتلقّي حموارب شريعته عن الإله الشمس الذي انتشرت عبادته في اليمن والشام أيضاً ومنها انتقلت إلى روما عندما «صبّ العاصي في نهر التيبر».

أما المثال الذي يضربه المؤلف على أولوية البطلين النورديين بروميثيوس وهرقل وتميّزهما فلا يخرج عن سياق التكامل المألوف بين الثقافات الانسانية، القديمة منها والحديثة. فليس سرّاً دور البطلين جلجامش البابلي وميلكارت الفينيقي

في صياغة هاتين الشخصيتين. فالأرض السامية رفدت حضارة اليونان والرومان بالكثير بدءاً من «اللوغوس» الذي يتكرر استخدامه في الكتاب ضمن التأملات حول النورديين وحتى الاشراقات الأولى لكريت فجر الحضارة اليونانية وحتى أرحب ميادين الفكر والفن. بل ومن حقنا أن نتساءل، نحن الذين لا نزال نسمي أرسطو «المعلم الأول» ـ وما الذي يتبقى من التراث اليوناني إذا جرّد من الإسهام السامي؟

وبعد مئة صفحة من هذه الصفحات تكتمل الرؤية الجديدة لدى المؤلف وتدرك غايتها في الصفحات 560 ـ 565 إلا أن الخطاب يمضي مستمراً في تقريريته بينما يترك الحديث تدريجيا لرينيه غينون الذي سيصل بنا إلى النتيجة الحاسمة. ومن اللافت للنظر أن المؤلف الذي كان على مدى مئات الصفحات قد حصر الصراع الكوني ضمن ثنائية عنصري الأرض والماء لم يأت على ذكر عنصر النار لا تصريحاً ولا تلميحاً، بينما نجده يسترسل فجأة في الحديث عن «العنصر الذي غيّب عن الأنظار»، النار، التي احتلت مركز الصدارة في الوجود الانساني، الفردي والجماعي «فلما انطفأت النار المقدسة في بيوت البشر، في قلوب البشر، في معابدهم تصاعد زئير لوياثان الأسطوري» وخسرت الأرض في المبارزة مع البحر. ثم يعود المؤلف إلى القضية التي كان ك. شميدت قد ناقشها وانتهى فيها إلى ما يشبه استحالة الاستمرار في هذا البحث فـ «العقبة الوحيدة في هذا السبيل هي استحالة مماهاة الشرق بصفة حادة مع الصراع ضد الأيقونة والغرب من تمجيد الأيقونة». لكن القضية تتخذ بعداً مصيرياً بالنسبة للمؤلف معتمداً في ذلك على رينيه غينون حيث تُحوَّل الأيقونة وقد أضيف إليها ما يسمى بـ «تحطيم التماثيل» إلى «الحدّ» الذي يفصل بين «الحق والباطل» بين وجودين بشريين ينفي كل منهما الآخر (!) ثم نقرأ: «النفور من التصوير وتحطيم التماثيل ليسا من خصائص الشرق بقدر ما هو من خصائص الجنوب»فتتوارد إلى الخاطر صور هذا الشرق العظيم، شرقنا الذي جسّدنا فيه الجمال بالصورة، وبالصورة، عالجنا مرضانا، وبالصورة كتبنا وما زلنا نعالج الصورة والصور حتى حولناها حروفاً تكونت منها الأبجدية، أثمن هدية قدمناها للبشرية، الشرق الذي أبدع منذ فجر التاريخ أكثر الصور والتماثيل تعبيراً عن الإنسان وتجليات وجوده في الحياة، عن تصوراته للآلهة، لحركة الطبيعة منذ أيام التاسيلي حيث «تأبّدت» حركة الحياة في الصورة المنقوشة في الصخر ومروراً بمصر التي وصل الفنان فيها إلى التعامل مع الصخر والخط

واللون وكأنها مادة لينة طوع يديه ووصولاً إلى اليمن والعراق والشام وكلها تعيد صياغة المخلوقات الحيوان والنبات والجماد صوراً وتماثيل تنافس الحياة في حيويتها. وبالإضافة إلى ذلك أقام أبناء الشرق الساميون على أرضهم أوابد الفن المعماري - من القصور والمعابد والمدن والأهرامات التي لا تزال تتفرد بأسرارها وتصاغ التفاسير لمجرد الاقتراب من هذه الأسرار أما الأوابد اليمنية فهناك من يربط بعض مبانيها بأقوام ربما جاءت من عوالم أخرى، واختلطت صور الحدائق المعلقة في بابل بين الحقيقة والخيال، ومنذ ثلاثمئة عام بنيت بطرسبرج، إحدى أجمل عواصم العالم، فلقبوها بتدمر الشمال! ثم نقرأ: «يشير غينون . . . إنه لبناء معبد سليمان تمَّ استدعاء المهندس الأكبر من بين الغرباء ويبرهن على أن الحديث كان يدور حول ممثل للتقاليد الهند أوروبية». ليبرهن غينون قدر ما تشاء له براهينه فالنبي «الحكيم» قادر على تمييز الأم الحقيقية الأصلية عن «الأم» الدعيّة الغريبة! ثم نقرأ «غينون يؤكد على أن التقليد السامي ليس تقليداً شرقياً بل أطلسي غربي، وهو في الوقت نفسه بدوي». ثمّة إذن شيء يبّيت وراء هذا الاصرار على تجريدنا من الأمور الصميميّة في كياننا، من الصورة والأيقونة والتمثال والعمارة. التقليد السامي تقليد بدوي إذن! تلصّق البداوة بأمهر المعماريين في التاريخ الإنساني حتى اليوم، من روّضوا النيل والفرات ودجلة وبنوا أسوار بابل وشادوا أعظم السدود في اليمن وحوّلوا أراضي الشام قمحاً وزيتوناً ووروداً فالجنان تستمد صورتها منها، وشفّت حضارة الاستقرار من أساطير هؤلاء الساميين وملاحمهم القديمة ونصوصهم الأدبية والحقوقية المتعلقة بأدق قوانين ملكية الأرض والمغارسة والبيع والإرث وما كانت نسبة البدو بينهم تفوق عما هي عليه لدى أي شعب آخر. ولكن من الذي تهمّه معرفة الحقيقة في عصرنا العجيب! ثم نقرأ: «غينون في الوقت نفسه يربط الشرق بالشمال إذ يعدّه الوريث التاريخي للتقليد النوردي البدئي» وما هي إلا أسطر قليلة حتى نقرأ: «وعلى القطب المقابل من التاريخ يظهر طبقاً لذلك الجنوب بمعية الغرب (!)، البدو الساميون، ومن شأن غينون أن يسمى هذا المعسكر بـ «المنطلقات الأولى المعادية للتقليد» «بناة المحاكاة الساخرة العظمى» وبهذا تتعطل الحجج والعقلانية وبخطوة بهلوانية يسحب الشرق من تحت أقدام أهل الشرق ليلحق بالشمال، وبقفزة بهلوانية أخرى يسحب الشمال أيضاً ويعطى لنا «دور العامل السامي - الغربي والبدوي وفقاً لغينون والجنوبي إذا ما قيّمنا انتشار الساميين

من مواقع الأوراسيا». فما الذي يراد للساميين وقد جردوا من أخصّ خصائص هويتهم ـ من الاستقرار، من البناء والزراعة ووسائل الري وتشييد المدن ومن الصورة والتمثال . . . ومن الإسهام الفاعل في الحضارة الإنسانية؟ ماذا وقد حُوّلوا عن الجهة التي يحتلونها تحت الشمس؟ فهل من العجيب بعد ذلك أن تتداعى كل اللوحة التي رسمها أ. دوغين في كتابه وتنهار وأن ينسحب الصراع بين التيلوروكراتية الروسية والتالاسوكراتية الأطلسية وأن تختفي معالم العولمة والقطب الواحد وتغيب أحلام المؤلف، وأمانيه وأمانينا معه، في إقامة عالم جديد تتعدد فيه الأقطاب وتستعيد الشعوب إنسانيتها التي دعا إليها سياق الكتاب كله، وأن نواجه عند «التصفية النهائية» بمواجهة بين مَن؟ بين «الهندأوروبيين» و «الساميين»! وفي الصفحة الثانية قبل الأخيرة من الكتاب، وبالإضافة إلى بعض الأوصاف المهينة نقرأ ما لا تكاد تصدّقه العين:

«الشمال + الشرق، الأيقونة، الهندأوربيون، النار، البيت، الاستقرار، التقليد واليابسة. هذه قوى نوموس الأرض، أنصار الثقافة والنظام، الذين أجابوا على تحدي النار الفائقة بمجموعات من التقاليد الآرية ـ حتى المسيحية».

الجنوب + الغرب، محاربة الايقونة، الشعوب السامية، الماء، السفينة، البداوة، الحداثة والبحر، حملة الأغلال، الطاقات الأُخروية للفوضى العقلانية، نوموس البحر. لقد ردّوا على تحدي المحيط بوقوفهم إلى جانبه ضد الأرض وضد القضية البروميثيوسية النارية الأقدم، التي تكاد تكون منسية والتي سبقت نوموس الأرض وكامل التاريخ الإنساني.

ذاك ما تفضي إليه المواجهة بمجرد أن جرّد الساميون من الأيقونة (!) والحق إن إنكار الرسم والنحت على الساميين أشبه بتغطية الشمس بالغربال. فما الذي يراد من قلب التاريخ بهذه الصورة؟ ما الغاية الحقيقية من وصفنا بالبداوة والترحل وتجريدنا من شرقنا وحرفنا مسافات بعيدة نحو الجنوب؟ ولم نُتهم بمحاربة التماثيل وتحطيمها وما نُهب منها مما حفظناه في متحف بغداد لوحدها يقدر بمئات الألوف؟!

* * *

وأخيراً ما الذي يمكن أن نقوله للقارىء العربي وقد «حال الجريض دون القريض» وتلبّدت كل الأجواء بالغيوم.

الكتاب، على أهميته لا يبعث على الكثير من الأمل، بل ويفاجئنا بالعنصرية التي تمخضت عنها صفحاته الأخيرة لكنه مهم مع كل ذلك. وأثبتت الأيام ما تحدث به المؤلف حول ضمور دور الأمم المتحدة حتى خرجت دول التحالف لتخوض حرباً كانت المظاهرات في أمريكا وانكلترا والعالم قد خرجت ضدها حتى قبل أن تشتعل، وعندما تحدث بسخط وانفعال عن دول «الخارج القريب» التي ستتسابق إلى خدمة الأطلسية وقد فعلتْ. وكان جريئاً في نقده لبلاده وصريحاً في توكيده، دون أي مبالاة، على المفاهيم التقليدية للعلاقات الدولية وأحقية الأقوياء دون غيرهم في رسم خرائط الكون. فحتى الهند الدولة ـ القارة الذرية التي قطعت مراحل متقدمة في الصناعات الالكترونية والتي تبني حاملات الطائرات ما شغلت في مخططات أ. دوغين إلا مرتبة ثانوية تفتحها أمامها القدرات الميتافيزيقية لبعض كهنتها؛ كما لم يخصص لوطننا العربي إلا القليل وإن كانت له أهميته.

ومع هذا فلن نقبل بالانحياز إلاّ إلى الفئة المتفائلة بسيادة الحق والخير في المستقبل. الحقيقة دوماً إيجابية، ونحن في حاجة إلى المواجهة مع الذات ومع الواقع الكوني المعاصر العلم الذي يحذرنا من بين دفتي هذا الكتاب وعلى لسان أحد الذي يريدون الخير لبلادهم أن لا أمة بدون قوة، ولا وزن دوليّ لأمة يقل عدد سكانها عن مئتي إلى ثلاثمئة مليون نسمة. ذاك هو قانون الجيوبولتيكا الجديد.

نسجل هذه الكلمات لا لنعبر عن الحسرة أو لنعلن أن الوقت قد تأخر، فكل وقت تستيقظ فيه الإرادة وتستعاد الثقة بالنفس والعزم والتصميم هو الوقت المناسب. ولقد قرع كتاب أ. دوغين ناقوس الخطر وفعل ذلك مؤلفون آخرون من قبله وسيأتي من بعده من يقرع هذه النواقيس ليعلن بصوت أعلى أن العالم بأسره معنيّ ومستهدف من أقصاه إلى أقصاه وأن عليه أن يتأهب ويستعد للتوجّه نحو تعددية الأقطاب.

فهل حان الوقت ولو لقليل من التضامن العربي الصادق بين أجزاء هذه الأمة العظيمة التي تملك مئات آلاف المتخصصين في مختلف ميادين العلم المعاصر، والتي وُضع حتى تاريخها المشترك المجيد في قائمة الأهداف المطلوبة اليوم. لقد آن لنا أن نستعد بكل ما نستطيعه من قوة الإيمان بالله وبأمجاد الأجداد وقوة